المقدمة

١. كيف نفهم النورسي ؟!

من هو النورسي رحمه الله ..؟ وما السبيل لفهمه..؟ ومع أي من أصحاب الأقلام نصنفه..؟ وفي أي حقل من حقول المفكرين المعنيين بالأيمان ندرج اسمه..؟

هذه الأسئلة وأمثالها ما زالت حتى اليوم وبعد مضي ما يقرب من ربع قرن على وفاته تراود ذهن الناقد الذي يقرأ "النورسي"، وتلح عليه لكي يجد لها الجواب الشافي، ليضع هذا المفكر المسلم في "مفهومة" معينة من مفهومات المدارس النقدية، أو يصنفه ضمن واحد من الأصناف التي يصنفون بموجبها المفكرين وأصحاب الرأي والقلم من المعنيين بشؤون الدين والإيمان ...

وإنسان ألمعيّ كالنورسي إذا كتب عن "الحياة والإنسان والإيمان" فلا بد أن يبدع أيما إبداع ويأتي بكل طريف وجديد... وهو حين يتناول القلب الإنساني ويلمسه بأنامل إيمانه لا يغادره حتى يضيء وينير.. ويظل يحفر في صخور النفس حتى تتفجر فيها ينابيع الخير والجمال.. وهو كذلك يحاور العقل المتفلسف ويناقش منطقه، ويناوش شكه ولا ينفك عنه حتى يهرع مطمئنا إلى الإيمان واليقين.. وهو في غمرة هذه الاهتمامات العالية لا ينسى أن يكتب للحزانى

والمكروبين مواسيا، ويسري عن "المرضى والشيوخ"[1] آلامهم وأوجاعهم، ويسكب في قلوبهم وأرواحهم بلسم الأمل وترياق العزاء...

فمفكر عملاق مثل "النورسي" يمكن للمدارس النقدية جميعها أن تجد لها حظا فيما ترك من عظيم الأعمال، وغزير الاهتمامات، ولكن يصعب على واحدة منها أن تحتويه أو تعتبره واحدا من روادها دون منازع..

ورغم أنه هين لين سهل النفاذ إلى القلوب والعقول، فإنه "مفكر صعب" يحار الناقد مع ألوان فكره المتشابكة، كيف يميز اللون الذي له التفرد والغلبة على بقية الألوان.

٢. منهج النورسي والفلسفة

والرأي الجامع في "النورسي" والذي لا أظن أن اثنين يختلفان عليه، هو كونه مجددا في كل ما تناوله من شؤون الدين والفكر والحياة.. وهو تجديد ينتظم مناهج البحث وطرائق العرض، وأساليب المعالجة ...

ولكونه يملك عقلا تركيبيا جامعا، وفكرا استيعابيا وشموليا، واهتماما بالكليات الأساسية العامة التي تندرج تحتها جزئيات أية قضية يعالجها ومفرداتها، فانه يبدأ بهذه الجزئيات والمفردات في بناء صروحه الفكرية، فيعلو تدريجيا ويعلو، ضمن منهج ذهني طويل النفس، واضح المعالم، مستعينا في عملية البناء وترسيخ الأسس بالأمثال في غالب ما يتناول من أفكار مجردة، حتى يكتمل الصرح، ويقعد البناء على قاعدة كلية وأساس عام راسخ.. ثم يبدأ بوضع اللمسات

---

(١) "المرضى والشيوخ" رسالتان من رسائل النور، (اللمعات ٢٥-٢٦) مسح النورسي من خلالهما الأوجاع والآلام التي يعاني منها المرضى والشيوخ وسرى عنهم وبعث فيهم الأمل والرجاء والعزاء.

الأخيرة في هذا البناء، ويتوجه بالآية الكريمة من كتاب الله، أو الحديث النبوي الشريف من سنة الرسول ﷺ. فإذا بالآية أو الحديث وقد سطعا بنورهما فوق هذا الصرح، وأنارا زواياه وجوانبه، وأضاءا أطرافه، فيدلف القارئ إليه محاطا بالنور من كل جانب فلا يتعثر في مشيه، ولا يتهجس في سيره.

على ضوء ما تقدم هل يمكن اعتبار النورسي فيلسوفا..؟ أو عقليا يعتمد العقل أساسا فيما يعالج من أمور الفكر والدين والحياة..؟

صحيح أن منهجه يشبه إلى حد ما مناهج الفلاسفة العقليين، وصحيح انه يلتقي معهم في: "العقل التركيبي الجامع، والفكر الاستيعابي الشمولي، والاهتمام بالكليات" إلا أنه يمضي أبعد منهم ويتجاوزهم، ويسمو فوقهم بمراتب.. ذلك لأن الفلاسفة –والتقليديين منهم بشكل خاص– يقفون عند حدود العقل لا يتجاوزونه، ولا يرون ما وراءه أو بالأحرى لا يريدون أن يروا ما وراءه.. أما النورسي فيظل ماضيا مع العقل إلى حدود ما يستطيعه ويطيقه، فإذا كل وتعب جاوزه إلى "الحدس" الذي هو أسرع انتقالا في الفهم والاستنتاج، واصدق إحساسا بالحقيقة من العقل، وأرهف شعورا بعالم "ما وراء العقل" واقدر على النفاذ في أعماق الغيوب.

٣. النورسي والتصوف

ولا تحس وأنت تقرأ النورسي في بناه الفكرية بما تحسه في بنى المفكرين الآخرين، من صرامة المنطق، وثقل البناء، وجهامة الأسلوب.. بل تحس بالرجل وكأنه يدفع بأفكاره –قبل أن ترى النور– إلى قلبه لترق هناك وتشف، وتخرج من ثمة ترف رفيف الفراش، فيلتقطها قلم روحي المنبت، سماوي المداد، كوني

اللون والضوء، فلا تكاد عينك تصافح ما كتب حتى ينفذ إلى قلبك بلمحة خاطفة، ويسري إلى روحك كما يسري البرق في ظلمة الليل، ثم يتلقفه ذهنك وله من قلبك وروحك -في الفهم- سند أي سند..

هذه الطريقة في الكتابة التي تبدأ ذهنية في جزئياتها وأولياتها، وتنتهي روحانية قلبية ذوقية في قمتها، هي التي أوقعت بعض الذين قرأوا النورسي في خطأ اعتباره صوفيا كبيرا، أو صاحب مدرسة صوفية جديدة..

ولا شك أن النورسي قد عرف التصوف معرفة تامة، وخَبَر أصوله، ومارس في حياته بعضا من ألوانه، وقرأ لعمالقة التصوف وتأثر بهم.. وكشف عن عقده ومشاكله، واطلع على مزالقه، وشاهد إيجابياته التي تخدم "الإيمان" وترفده وتقويه، ووقف على مهاويه ومخاطره التي أهلكت خلقا كثيرا، وقد تضمنت رسالته "التلويحات التسعة" مجمل آرائه في "التصوف" كما سيطلع عليها القارئ الكريم في هذا الكتاب..

وهو وان كان يكن للتصوف الصافي الخالص من الشوائب، والنابع من السنة النبوية الشريفة الاحترام والتقدير. إلا انه لم يكن صوفيا، وهو صاحب المقولة المشهورة: ''إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان''.(١)

وهو يعتبر "التصوف" مرحلة من مراحل الارتقاء الإيماني، وليس قمة هذا الارتقاء، وثمة درجة أعلى منها وأسمى هي درجة التلقي عن القرآن الكريم مباشرة واعتبار القرآن الكريم الأستاذ والشيخ والإمام الذي ينبغي للمسلم أن يستمد منه الهمم والإمداد..

وقد كتب ثلاثين ومئة رسالة في شتى "العلوم الإيمانية" التي تضمنها القرآن

(١) الملاحق للنورسي، ملحق أميرداغ/١ ص ٢٦٣

الكريم وأطلق عليها اسم "رسائل النور" لأنها تقبس من نور القرآن، وتستنير بأضوائه، لذلك فهو يقول عن نفسه بكل تواضع إنه "خادم القرآن".

٤. النورسي والسنة النبوية الشريفة

تشكل "السنة النبوية الشريفة" في فكر النورسي معلما إيمانيا لا ينبغي لأحد من المؤمنين أن يتجاوزه، أو ينفلت منه، أو يبتدع من الأقوال وطرائق العبادات ما تنكره، ولا ينسجم مع روحها العام..

ولكن النورسي ليس حرفيا في تعامله مع السنة ونصوصها، وليس ظاهريا – إلى حد الجمود– في التلقي عنها والفهم منها.

ولكونه يرى في الرسول الكريم محمد ﷺ "صاحب السنة" ذاتا متقطرة من روح الكون، ونبضا من نبضات قلبه، وصورة مجسمة هو اطهر صور فكره وخياله.. وهو –كما يحلو له أن يعبر أيضاً– مرآة الكون، والكون مرآته.. لذا فان سنته ﷺ، عظيمة عظم الكون، واسعة سعته، شاملة شموله، وهي لا تتعارض –بداهة– مع سنن الكون ونواميسه، بل تلتقيان لتكونا –معا– الناموس الأعظم للكون والحياة الذي لا تجد الإنسانية حقيقة وجودها إلاّ في كنفه والسير على هداه.

فكلام الرسول ﷺ –إذن– وأحاديثه الشريفة، تنبع من عالم الشمول هذا، وتتنزل من سماء السعة العظيمة التي تتألق فيها المعاني والأفكار، وتهبط من عرش "الرحمن" على قلبه فينطق بها لسانه: –"وما ينطق عن الهوى"–.. فحديثه ﷺ ينبغي أن يفهم على هذا الضوء، وأي توقف عند "حرفيته" أو ظاهريته فحسب، هو –في الحقيقة– حصر لما لا يمكن أن يحصر، وجمود يحدد النظر ويمنعه من الرؤية العميقة والبعيدة وربما يفوت "الحرفيين" و"الظاهريين" من معاني

الحديث الشيء الكثير، وقد كان من الممكن أن تتفتق لهم من معانيه ما لم يخطر لهم على بال بقليل من شمولية النظرة، واستيعابة الفهم.

هكذا يفهم النورسي رحمه الله السنة، وهكذا يتعامل مع نصوصها، ويستنبط الجديد والطريف.. وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يطمئن به إلى دقة نظرات الرجل، وسعة فهمه، وعمق إدراكه، وصواب ما توصل إليه من فهم جديد وواسع للسنة الشريفة..

٥. النورسي والقرآن الكريم

لقد كان لكلمة "الإمام الرباني" في واحد من مكتوباته "وحّد القبلة"[1] صدى عميقا في نفس النورسي رحمه الله، حتى أحس وكأنه هو المقصود بهذه الكلمة، وأنها تعنيه بالذات قبل غيره، لأنه كان -على ما يبدو- في حيرة من أمره لا يعرف كيف يبدأ رسالته الإصلاحية، ومن أين يبدأ ؟ فجاءت كلمة الإمام الرباني "وحد القبلة" على قدر وكأنها تتوجه إليه بالأمر أن يوحد قبلة فكره وروحه وقلبه، ويجمع "الكل" على "القرآن الكريم" ويتلقى منه وحده ويأخذ عنه ويعتبره الأستاذ والمرشد فيجلس بين يديه ويتلقى منه الأسرار والفيوض والرحمات، فاستمع إليه حيث يقول:

---

(١) الإمام الرباني "٩٧١ هـ - ١٠٣٤ هـ" هو الشيخ احمد بن عبد الأحد السرهندي، أتقن علوم عصره، وبرع فيها، وجمع إلى كفايته العلمية، ودراسته المتقنة، تربية الروح، وتهذيب النفس، والإخلاص لله، تخرج في ذلك على شيخ كبير من شيوخ النقشبندية هو الشيخ "عبد الباقي البدخشي". وقد عاصر الإمام الرباني انحراف سلطان الهند "الملك جلال الدين أكبر" عن الإسلام، ومعاداته ومحاولة القضاء عليه. وقد أوغل في كفرياته حتى ادعى الألوهية، فنهض الشيخ احمد السرهندي لمجاهدة هذه الفتن الرهيبة بقلمه ولسانه وسلوكه، داعيا المسلمين إلى الاعتصام بالسنة الشريفة، حتى هلك "الملك أكبر" وخلفه ابنه "جيهان شاه" الذي كان يحمل للشيخ احمد كل تقدير ومحبة، فعاد بالبلاد تدريجيا الى عقيدتها الأولى، عقيدة الإسلام . انظر مكتوبات الإمام الرباني "ج ١ ص٨٧ " ط ٢ - دار الكتب العلمية - لبنان .

"لقد اقتنعت أنا بالذات قناعة تامة بعد ألوف التجارب المتكررة لا بعشراتها ومئاتها: أن "الكلمات" والأنوار المفاضة من القرآن الكريم ترشد عقلي وتعلمه مثلما تلقن قلبي أيضاً بأحوال إيمانية كما تطعم روحي أذواقاً إيمانية.. وهكذا حتى أصبحت في إنجاز أعمالي الدنيوية كمثل ذلك المريد الذي ينتظر مدداً من شيخه ذي الكرامات، إذ أصبحتُ استمد من الأسرار القرآنية ذات الكرامة وانتظر منها حاجاتي تلك، فكانت تحصل بما لا أتوقعه وليس بالحسبان".[1]

وقد بلغ من تشرّبه العظيم بالقرآن الكريم، واستيعابه لأغراضه ومقاصده وغاياته، أنه كتب الكثير من "رسائل النور" في ظروف قاسية، ولم يكن في متناول يده من مصادر سوى القرآن نفسه. ويكفي أن تعلم انه ألف كتابه الفذ في التفسير "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" أثناء تنقله في ساحات القتال، وبين الخنادق والملاجئ في الحرب العالمية الأولى في الجبهة التركية الروسية، ولم يكن معه من مصادر التأليف سوى القرآن وحده.

وقد تأثر النورسي بأساليب القرآن وطرائق دعوته تأثرا عظيما، فملكت عليه لبه ومشاعره، واتخذ من منهجه –في الجمع بين هتاف العقل ونداء الروح في الآية والسورة– مثالا يحتذى به، وينسج على منواله في كتاباته التي يقول عنها: انه سلك فيها "طريقا غير مسلوك في برزخ بين العقل والقلب"،[2] فاستمع إليه يقول عن نفسه:

"لقد كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات، ساعياً

(١) المكتوبات للنورسي ص ٤٦٠.

(٢) المثنوي العربي النوري، النورسي ص ٣٥.

بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي".[1]

فلا يفتح بابا من أبواب القلب إلاّ تحت نور من أنوار العقل، ولا يلج منفذا من منافذ العقل إلاّ على جناح من أجنحة القلب..

وهذا بالفعل ما تطالعنا به كتاباته في كل رسائله:

منطق عقلي يمضي على مهل ويمضي، حتى إذا أوشك أن يصلب ويثقل، ويصدم النفوس والعقول بثقله وصرامته، بادره القلب برفيفه والروح بخفته ورشاقته، فإذا به يشف ويخف ويمضي منسابا إلى النفوس عذبا سائغا، وفراتا سلسبيلا، يسعفه قلم مطواع قادر على الأداء والتعبير عن اعقد معضلات الفكر، وأدق خفايا الروح والوجدان، ضمن عبارة هي الغاية في القوة والإشراق والوضوح، وجملة هي القمة من جمال البيان وسحر التعبير، فلا غرو بعد هذا كله أن يشيد "محمد عاكف"[2] شاعر تركيا الأكبر بقدرة النورسي الأدبية، وطاقاته التعبيرية. وبلاغة أسلوبه، ورشاقة أدائه، حتى ليضعه إلى جانب كبار أدباء العالم.

٦. الاعتدال في منهج النورسي

ومنهج النورسي المعتدل، ونزاهة فكره، وكرهه للتعصب، واجتنابه تجريح الآخرين من دون تفحص وتدقيق، ورفضه أن يتخذ موقفا مسبقا من الجماعات قبل التعرف على أفكارهم ومذاهبهم في مظانها الأصلية.. كل هذه الصفات –

---

(١) المثنوي العربي النوري، النورسي ص ٣١.

(٢) محمد عاكف "١٨٧٣-١٩٣٦": شاعر إسلامي من أبلغ شعراء الترك، كان عضوا في دار "الحكمة الإسلامية" مع الأستاذ النورسي. اشتهر بديوانه "صفحات".

والتي هي صفات العلماء الحقيقيين- هي التي أهّلت النورسي لكي يتناول - بتجرد ونزاهة فكرية- موضوعا خطيرا من المواضيع التي شغلت وما زالت تشغل عقول المسلمين وقلوبهم، ألا وهو "السنة النبوية وحقيقتها الروحية" وينشره في رسائله فيبدع فيه أيما إبداع ويأتي فيه بالجديد والمفيد.

وهذا النهج النبيل هو الذي شجعنا لكي نجمع ما وسعنا جمعه مما بثه النورسي في رسائل النور حول السنة الشريفة: سنة كونية وحقيقة روحية.

ونود أن نذكر أن ما ورد من مباحث إنما هو غيض من فيض مما كتبه النورسي في رسائل النور، وإنما هو معالم لطريق واسعة نرجو أن يوفقنا الله تعالى إلى الإلمام بها.

وختاما نأمل مخلصين أن يغدو هذا الكتاب واحة خضراء مورقة، وان تلتقي عليه أفكار المؤمنين وقلوبهم من المخلصين المحبين لله ولرسوله ﷺ أيا كانوا.. ونرجو من الله تعالى الرضى والقبول ومنه وحده الأجر والثواب..

أديب إبراهيم الدباغ

الموصل